

مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الخامسة:

الخطاب الدعوي وتحديات العولمة قراءة في واقع الخطاب الدعوي المحلي والعالمي وآفاقه

إعداد:

أ. حدبون محمد بن قاسم⁽¹⁾

1- الأستاذ: محمد بن قاسم حدبون، ليسانس في أصول الفقه، ماجستير حول موضوع: الآيات الكونية في القرآن الكريم من كلية أصول الدين جامعة الجزائر، عضو جمعية التراث بالقرارة غرداية.

باسم الرحمن الرحيم

توطئة:

لم يكن لمصطلح "العولمة" دلالة علمية دقيقة بمقاييس الفكر العلمي الأكاديمي، في بدايات بروزه في العقد الأخير من القرن الماضي، حيث انتشر استخدام المصطلح في بعض الكتابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمفهوم هولي غير محدد المعالم. ومع تطور أحداث عالمية عديدة منذ أوائل التسعينات⁽¹⁾ اكتسب المصطلح دلالات استراتيجية، وأبعاداً اقتصادية وثقافية مهمة، فساهمت هذه الأحداث في ضبطه وبلورته. وسنحاول تأصيل المصطلح لغوياً على حدثه، ثم نضبطه اصطلاحاً.

اللغة:

"العولمة" مصدر، على وزن (فَعْلَة) مشتق من كلمة (العالم)، كما يقال (قولة) اشتقاقاً من كلمة (قَالَ). فالتعبير صحيح من الناحية اللغوية، وإن كان جديداً على لغتنا ولن تجد له ذكراً في المعاجم والقواميس السابقة، لأنه مترجم عن غير اللغة العربية. مثله مثل الحداثة والإمبريالية، العالم الكرة الأرضية. وأول ما ظهر استعمال الكلمة في الولايات المتحدة الأمريكية، فأصلها من استعمال الأمريكيين والإنجليز، ثم ترجمت عن اللغة الإنجليزية (Globalization) والتي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل، وهذه الأخيرة مشتقة من كلمة "globe".² أما الفرنسيون فيعبرون عن المصطلح بلفظة: (Mondialisation) وهذه الأخيرة من كلمة "lemonde" والذي يعني العالم أو الدنيا.

وبهذا المعنى يمكن أن نفترض أن الدعوة إلى العولمة إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم غط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل الجميع: العالم كله.³

⁽¹⁾ من ذلك سقوط القطب الشيوعي وتفكك الاتحاد السوفياتي قاطرة النظام الاشتراكي، والذي كانت الند للولالات المتحدة المتحدة مترعمة النظام الرأسمالي؛ ورياح التغيير التي هبت بعد ذلك على أوروبا الشرقية وسقوط جدار برلين وكثير من الأنظمة الشيوعية (رومانيا مثلاً)؛ ونشوب حرب الخليج الثانية بعد غزو العراق للكويت، وبروز ما بات يعرف بقوة النظام الدولي الجديد.

⁽²⁾ عند الرجوع إلى القاموس فإن الكلمة لوحدها تعني "الكرة"، وواضح هنا أن المقصود بالكلمة "الكرة الأرضية".

⁽³⁾ انظر للتفصيل التعاريف التي أوردها في كتابه قاسم حجاج؛ العالمية والعولمة؛ ص 463-467.

وثمة من الباحثين من يستخدم للمعنى الآنف كلمة (الكوننة) اشتقاقاً من كلمة (الكون) بمعنى العالم أيضاً. كما أن بعضهم استعمل كلمة (الكوكبة) إشارة إلى كوكب (الأرض) التي نعيش عليها. ولكن الكلمة التي ذاعت وانتشرت هي (العولمة).

وبمراجعة إرهابيات تبلور المفهوم، وأنّ الراعي الفعلي للمفهوم كان الولايات المتحدة فهناك من يقرن بينها وبين "الأمركة"، أي نشر وتعميم الطابع الأمريكي.

نقد وتعقيب: العولمة المصطلح الأكذوبة..

قد تكون العولمة ظاهرة صحية، إذا أخذت على وجه العموم "بأنها حركة تهدف إلى تعميم تطبيق أمر ما على العالم كله كما أسلفنا.

وهذا المفهوم يستتبع استفساراً مهماً عن إجراءات الأخذ بهذه العولمة فهل تتبنى مختلف دول العالم هذه "العولمة" اختياراً، بمعنى أنّ الشعوب تستشار في صياغة أسسها، وتخطيط أساليبها، وتحديد آلياتها، وتتمتع بالحرية المطلقة في قبولها أو رفضها في النهاية؟ إذا كانت إجابة الأسئلة السابقة "نعم" فإن العولمة حين تسود جميع دول العالم، يكون ذلك بناءً على اختيار حر وإرادة مستقلة منها. وتكون العولمة بذلك ظاهرة صحية.

وحيث إنّ تبلور المفهوم كان بالولايات المتحدة ومن سايرها من الدول الصناعية، وفي ضوء هيمنة المفهوم الغربي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي، على العالم. فإنّ المفهوم وتطبيقه يصاغ على مقاس قانون الغلبة وقانون الغاب والمصلحة. ومن هنا وجدنا أنّ العولمة أكذوبة لها باطن فيه الرحمة وظاهرها وجه من أوجه الاستعمار والاستغلال.

وليس غريباً أن تفرض العولمة على الآخرين وفق المفهوم الغربي فرضاً، ليس فقط ما يتعلق بتخطيط التنمية، وتوفير الخدمات الأساسية للحياة، ولكن تتعدى هذا إلى منظومة الفكر والثقافة وأسس الحضارة.

وعلى الصعيد الاجتماعي يُستخدم المصطلح لوصف الحركية البشرية التي تربط العلاقات الاجتماعية وتجعلها أكثر تأثيراً ببعضها؛ تأثيراً لم يعترف بالحدود وتلاشت معه المسافات، وبين الثقافات ساد الوصل بدل الفصل، وأثر الأقوى في الأضعف، وطُحنت ثقافات وأعراف وتقاليد وراحت في مهبّ رياح التغيير والعولمة، حتى غدا العالم قرية واحدة صغيرة في ظلّ تزايد معدل التفاعل بين البشر، وتصاعد وتيرة تأثيرهم

بعضهم البعض. ونالت رياح التغيير أعتا المجتمعات المحافظة، لما انتهكت الخصوصية، وصدق أحد النقاد وهو يراقب الوضع عن كثب لما قال "الكلّ مشارك في الأزمة، فإمّا أن تكون صانعها، أو تكون ضحيّتها".

* مرتكزات العولمة:

وفي الواقع يعبر مصطلح العولمة عن تطورين هامين هما: التحديث Modernity، والاعتماد المتبادل Inter-dependence في السلع والفكر، فيتركز مفهوم العولمة على التقدم الهائل في التكنولوجيا والمعلوماتية، بالإضافة إلى الروابط المتزايدة على كافة الأصعدة على الساحة الدولية المعاصرة. وقد ساهمت ثلاثة مرتكزات في صياغة مفهوم العولمة على المستوى الفكري والنظري، وفي الخطاب السياسي الدولي:

1. **عولمة رأس المال:** أي تزايد الترابط والاتصال بين الأسواق المختلفة حتى وصلت إلى حالة أقرب إلى السوق العالمي الكبير، خاصة مع نمو البورصات العالمية.
2. **التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والانتقال:** والذي قلل -إلى حد كبير- من أثر المسافة، وانتشار أدوات جديدة للتواصل بين أعداد أكبر من الناس كما في شبكة الإنترنت.
3. **عولمة الثقافة،** حيث اصطبغت الشعوب بثقافة الأمم التي تبسط نفوذها عليها، وسعت الدول الموعولمة إلى ترسيخ ثقافتها في مختلف جوانب حياة هذه الشعوب، وتوجيه قيم هذه الشعوب وتقاليدها وحضارتها، وفق أنماط الحياة التي تريدها الدول الأقوى.

* تاريخية العولمة:

وتاريخياً، فإن مفهوم العولمة لا يتجزأ عن التطور العام للنظام الرأسمالي، حيث تعد العولمة حلقة من حلقات تطوره التي بدأت مع بزوغ الثورة في القرن الثامن عشر، وهيمنة القوى الأوروبية على أنحاء كثيرة من العالم مع المد الاستعماري. فلبست هذه العولمة عدة أثواب، منها الثوب العسكري الاستعماري، ومن ورائه استنزاف الموارد.

واليوم، وقد تفوق دول الشمال الموعولمة على دول الجنوب الموعولمة بما حازت من علم وتكنولوجيا، وبما امتلك من وسائل الدمار الشامل، وبما استنزفت وتستنزف من ثروات طبيعّية. حتى غدا الشمالُ مصدر

الإنتاج في مختلف المجالات ، وأصبح الجنوب مستهلكاً لهذا الإنتاج. ولكي يقنن الشمال هذه العلاقة ، أطلق ندائه بالعولة وأخذ بأسباب تحقيقها في مختلف الميادين.

وعليه فإنه على المستوى النظري والواقع المشهود نجد أن مفهوم العولة يحتوي على مساحة من التناقض ، فالعولة في أجلى صورها اليوم تعني (تغريب العالم) أو بعبارة أخرى (أمركة العالم). إنها اسم مذهب للاستعمار الجديد الذي خلع أرويته القديمة ، وترك أساليبه القديمة ليمارس عهداً جديداً من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف (العولة).

وحيث إن العلم الحديث والتكنولوجيا المتقدمة هما مطية العولة ، ومع مراعاة التعددية الثقافية والخصوصية الدينية والحضارية للشعوب ، وسعيًا إلى تحقيق الأمن والرفاه والسلام للجميع ، يمكن أن ننتهي إلى تحديد مفهوم "العولة كما ينبغي أن تكون" على النحو التالي:

توظيف التقدم العلمي التكنولوجي المعاصر ، لتحقيق الأمن والسلام العالمين ، والسعي لتحقيق الرفاه لجميع دول العالم ، وبناء علاقات هذه الدول على أساس التعامل مع التعددية الثقافية ، والخصوصية الدينية والحضارية.

* الخطاب الدعوي، والخطاب الديني:

يرى د. القرضاوي أن المراد بكلمة الخطاب الديني هو "كل بيان (دعوة) باسم الإسلام ، يوجه للناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لتعريفهم بالإسلام ، وقد يأخذ هذا الخطاب شكل الخطبة والمحاضرة والرسالة والمقال والكتاب والمسرحية والأعمال الدرامية ، وبذلك ينبغي ألا نحصر الخطاب الديني في خطبة الجمعة فقط.."⁽¹⁾

وحسب رأي عميد جامعة الأزهر الأسبق ، الشيخ محمد إبراهيم الجشي ، "فإنّ (الخطاب الدعوي) في مفهومها الأصلي مسؤولية كل مسلم".

وبين الخطاب الدعوي والخطاب الديني عموم وخصوص ، فالخطاب هو الوسيلة والدين هو المضمون ، و﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ فالدين مجموعة حقائق ثابتة لا تتغير ، لكن الذي يتغير هو أسلوب عرضها والذي نصطلح عليه بالخطاب الدعوي.

⁽¹⁾ انظر: ندوة تحديد الخطاب الديني كيف ولماذا؟ نقابة الصحفيين المصرية؛ 2003/9/1 . موقع موقع إسلام أولان . islamonline.net.

فكل مسلم داعية، عليه أن يجدد خطابه مرتكزاً على منهاج الحكمة التي تخاطب العقول وتقنعهم بالدليل العلمي والموعظة الحسنة التي تستميل العواطف وتحرك القلوب، وأن يعتمد أسلوب الداعية على انتقاء الكلمات الطيبة؛ بأن الإسلام دين يجمع ولا يفرق، خطاب يجمع الناس على الجوامع الأساسية حتى مع غير المسلمين. فهذا الأخير هو حامل وحامي الخطاب الديني.

هنا يجب التمييز بشكل حاسم بين الدين، من ناحية، والخطاب الديني، من ناحية أخرى. وأحدهما ليس مثل الآخر على الإطلاق. فالدين هو النص الثابت المتضمن في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة. بهذا المعنى يكون الدين واحداً، وثابتاً غير قابل للتغيير. بل إن النص، أو الدين من هذه الزاوية هو نص محايد. لكنه نص مفتوح بشكل لا نهائي على أكثر من قراءة. ومن هنا يبرز الخطاب الديني، أو قراءة النص. بعبارة أخرى، الخطاب الديني هو قراءة معينة للدين. وبالتالي فإن مسؤولية خطاب ديني معين عن ظاهرة ما، مثل ظاهرة الإرهاب، لا يعني بأي حال أن هذه المسؤولية تنسحب أيضاً على الدين.

والأرجح أن من يقول إن مسؤولية الخطاب الديني تعني مسؤولية الدين ذاته يحاول أن يجعل من قراءته للدين هي القراءة الوحيدة في صحتها وشموليته.

وقطعاً الخطاب الديني في أصوله وأساسه لا يتغير، لأنه مبني على عقائد وعلى عبادات وعلى قيم وعلى تشريعات يعني لا تتغير، ولكن الذي يتغير هو أسلوب الخطاب الدعوي، القابل للتطوير والتغيير.

ووصف أحمد الريسوني قضية التجديد بأنها "قضية الساعة"، بسبب التحديات الحضارية والسياسية والعلمية المعاصرة التي تهب على المسلمين. وقال إن "تجديد الخطاب الديني هو حديث قديم متجدد، قد يكون المقصود به البحث عن خطاب جديد، وإحداث إصلاحات وتجديدات في هذا الخطاب"

وقال "من المؤكد أن المقصود بالخطاب الدعوي هو الصيغ العملية والقولية التي يقدم بها الدين أو يقدم بها الناس الدين، أي خطاب عن الدين ولكن بصيغة معينة".

والتجديد في الشكل وتجديداً في المضمون، وأوضح أن التجديد في الشكل الاختلاف فيه قليل والباب فيه واسع، ولكن المعضلة هي في الدعوة إلى تجديد المضمون، لأن المضمون فيه القطعيات والظنيات، ما يحتمل التأويل وما لا يحتمل التأويل، وثوابت ومتغيرات.

وفي ظلّ العولمة يعني "تجديد الخطاب الديني" من المنظور الأمريكي هو "أمركة" الإسلام وهي عملية تستهدف نحو خصوصية الثقافة الإسلامية.

أما تجديد الخطاب الديني من المنظور الإسلامي، فهو تطوير الفكر الإسلامي ليعيش ويعايش العصر، ويستوعب مستجداته ويعرضها على مبادئ وأحكام الدين، ويجدد أدواته وأساليبه، ويستفيد من إنجازات العلم والتكنولوجيا، ويراجع الأفكار القديمة ويناقش ما يخدم حياة الناس وهذه هي سنة الحياة.

* جدلية التفاعل بين الخطاب الديني والعولمة:

في ظلّ تسارع التغيرات التي تعرفها البشرية، في القرن العشرين وبخاصّة في العقود الأخيرة، ومع تنامي الانفجار المعلوماتي، والتطورّ الرهيب لآليات الاتصال وتقنياته، وتحطّم الحواجز الجمركيّة والحدود الجغرافية وتحوّل العالم إلى قرية كونيّة واحدة فرضت جملة تساؤلات نفسها في مجال الخطاب الديني الدعوي، منها: هل الخطاب الديني بمفهومه العام السابق يتغير في عصر العولمة عن أي عصر آخر؟ وهل يتغير من قوم إلى قوم؟ ومن مكان إلى مكان آخر؟ من يقوم بالتغيير؟

والثابت أن الدين مجموعة حقائق ثابتة، لكن الذي يتغير هو أسلوب عرضها، ومن هنا فعرض الثوابت في الخطاب الديني يختلف من زمن لآخر ومن بيئة لأخرى ومن قوم لغيرهم، كما يتضمن الدين متغيرات تقبل التجديد والاجتهاد.

وانطلاقاً من هذه الطبيعة للدين فإن فكرة التجديد ليست مرفوضة إسلامياً؛ فالقرآن الكريم قد غيّر من أسلوب خطابه الديني من مكان لمكان ومن وقت لوقت، ودلّل على ذلك بالاستشهاد باختلاف الخطاب الديني في الموضوعات والأسلوب ما بين القرآن المكي والقرآن المدني.

فمثلاً نجد أن القرآن المدني لم يعتمد على أسلوب الزجر، ولم ترد به كلمة "كلاً"، وهذا يدل على أن الخطاب يتغير، وقد قال تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾، واللسان هنا لا يعني اللغة، وإنما يعني اختلاف الخطاب الموجه لعامة الناس عن خاصتهم.

ولا بد أن يُبنى هذا الخطاب على فهم دقيق لطريق المخاطبين وعقلياتهم وبيئاتهم، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما لا يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"، وروي عن بن مسعود: "ما أنت حدثت قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة".

كما أن هناك قاعدة فقهية تقول: "الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال والنية"، ومن هنا فالدعوة وخطابها أكثر قابلية للتغير من الفتوى.

في ظلّ العولمة وقانون الإكراه تحت مظلة التهديد أو التلويح بالمساعدات ، من يقوم بالتغيير؟

أجاب د.القرضاوي "بأن علينا نحن المسلمين أن نغير خطابنا بأنفسنا ومن منطلقاتنا، ولا يجوز أن يُملَى علينا هذا التغيير بأوامر تأتينا من الغرب ؛ لأننا بذلك سنخضع لأهوائهم. ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

فكيف تطالب أمريكا الدول الإسلامية بتغيير الخطاب ولا تطالب الصهاينة الذين يبنون خطابهم الديني على إباحة اغتصاب أراضي وحقوق الآخرين؟ ولماذا لا تطالب اليمين المسيحي المتطرف بأن يراجع خطابه الديني؟ فإذا كنا نوافق على تغيير خطابنا من منطلقاتنا فلا بد أن يغير الآخرون خطابهم الديني أيضاً.

وأوضح أن هذه الدعوة الأمريكية لنا بتغيير خطابنا هدفها تغيير الإسلام الأصلي إلى إسلام مستأنس يمشي في الركاب ويتمسح في الأعتاب.

1. تحديات الخطاب الدعوي في عصر العولمة

1- الخطاب الديني والعالمية الإسلامية:

جاء الإسلام الحنيف ليتوّج جميع الرسالات السماوية السابقة ويهيمن عليها، وحمل الخطابُ القرآني رسالةً عالمية للناس جميعاً، فوصف الخالق - عز وجل - نفسه بأنه "ربُّ العالمين"، كما وُصِف القرآن الكريم بأنه رسالة الله إلى الناس كافة ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان: 01)، وكما في قوله تعالى ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ (ص: 87-88).

وبديهي أن يكون رسول خاتم الرسالات السماوية مبعوثاً للناس أجمعين، حقيقةً أكّدها كثير من الآيات نحو قوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: 107)، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28).

وقامت دعوة الإسلام على اعتبار القاسم المشترك بين حضارات العالم، فقبلت الآخر وتفاعلت معه أخذاً وعطاءً، بل إن حضارة الإسلام تعاملت مع الاختلاف بين البشر باعتباره من حقائق الكون، وآية من آيات الله، لذلك دعا الخطاب القرآني إلى اعتبار فوارق الجنس والدين واللغة من عوامل التعارف بين البشر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

ويوحّد الإسلام بين البشر جميعاً رجالاً ونساءً، حكّاماً ومحكومين.. في جزئيات محددة كأصل الخلق والنشأة، والكرامة الإنسانية والحقوق الإنسانية العامة، ووحدة الألوهية، وحرية الاختيار وعدم الإكراه، ووحدة القيم والمثل الإنسانية العليا.

وبذلك تبلور الخطاب الديني الإسلامي واكتمل بانقطاع الوحي، وانتشر وفق مستوى شمولي عالمي، وقطع الخطاب الإسلامي المتميز بالعقلانية والواقعية علاوة على سماويته، كلّ دوائر الانتشار العشائري والقبلي، وحدودهما المحلية وهضم واستوعب تراث ما انفتح عليه، بصورته توفيقية من غير إكراه ولا قسر، لتجسّد بذلك معاني الشمولية والعالمية المتضمّنة فيه، فاحتضن العالم القديم وتراكماته العقيدية والفلسفية والتصورية، بين تعاليمه الآفاقية في أقل من قرن.

* صدام العولمة للخطاب الديني العالمي:

ربما كان معنى العولمة في ظاهره الشموليّ يقترب من معنى (العالمية) الذي جاء به الإسلام..! لكن هناك في الواقع فرق كبير بين مضمون (العالمية) الذي جاء به الإسلام، ومضمون (العولمة) التي يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعاً ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ (الإسراء: 70)، واستخلف الله الإنسان في الأرض، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه. كما تعني العالمية المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسؤولية، وأنهم جميعاً شركاء في العبودية لله تعالى، وفي النبوة لآدم، كما قال الرسول الكريم أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر، إلّا بالتقوى..."

والرسول الكريم بهذا يؤكد ما قرره القرآن الكريم في خطابه للناس، كلّ الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13). على أنّ تقرير المساواة العامة بين البشر، لا يلغي خصوصيات الشعوب بل يعترف بها ويجعلها مدعاةً للتعارف والاعتراف والتكامل. وهذه القضية (الاعتراف بالخصوصيات) في غاية الأهمية، حتى لا يطغى بعض الناس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

من هنا.. تبدو الاختلافات جليّة بين "عالمية" الإسلام ومفهوم "العولمة" المعاصر، فهذه الأخيرة تركز على عملية "نفي" و "استبعاد" لثقافات الأمم والشعوب ومحاولة فرض ثقافة واحدة لدول تمتلك القوة المادية.

وبينما تتسارع العولمة الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية سعياً وراء تقليل فوارق المسافة، تخلق السياسة العديد من الفجوات بين الدول. لتقضي واقعا جديدا بعد القضاء على الكثير من الثقافات والأعراف، لتأخذ الظاهرةُ جدلية إدراك الإنسان لدوره ككائن اجتماعي من ناحية، وكفرد يتصارع عالمياً سعياً وراء مكانة خاصة.

ويرى بعض الباحثين أن الإشكالية في العلاقة بين العالمي والمحلي تنفاقم حين تحاول القوى العالمية الكبرى مثل: الولايات المتحدة أن تُعطي الطابع العالمي لما هو محليّ لديها من أجل تحقيق مصالحها الخاصة. وهو ما يطلق عليه الباحثون "عولمة المصالح المحلية". والغلبة فيه لمن يمتلك المنافذ الإعلامية العديدة والعالمية⁽¹⁾.

وكجزء من فرض الهيمنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من الدول المعولمة،⁽²⁾ تفرض هذه الأخيرة ثقافتها الخاصة التي تخدم المصالح الاقتصادية، والتي تقوم على فلسفة المادية والنفعية وتبرير الحرية إلى حد الإباحية، واستخدام أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالمية، وتُساق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياسات التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.⁽³⁾

وتجلى ذلك في (مؤتمر السكان) الذي عقد بالقاهرة في صيف 1994، والذي أُريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجزئ الأسرة الوحيدة الجنس (زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء) وإطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور التي تخالف الأديان السماوية كلها، كما تخالف ما تعارف عليه مجتمعاتنا، وغدا جزءا من كينونتها الروحية والحضارية.⁽⁴⁾

¹ حتى الدول الأوروبية لم تسلم من الإرماد الإعلامية الأمريكية، وركب الفرد الفرنسي مثلاً عقدة النقص أمام النمط الأمريكي.

² ليس شرطاً أن يكون الطرف المعولم دولة، فقد يكون شركات كبرى، وهيئات مستقلة.

³ تحت سلطان المساعدات الاقتصادية أو التهديد بالضربات الاستباقية أو اعتبار مبدأ الرئيس جورج بوش "معنا أو ضدنا" أو التصنيف إلى محور الشر والدول الصديقة..

تمضي الولايات المتحدة وحلفاؤها قدماً نحو تقرير وفرض كثير من سياسات البيت الأبيض، خاصة فيما بات يعرف بقبضة صقور البيت الأبيض أو المحافظون الجدد.

⁴ تسويق هذه الأفكار وتدويلها لم يكن بالصدفة ولا بالمرّة، بل بالتدرّج والاستمرارية، وقد سبق مؤتمر القاهرة الذي عوّل المرأة والأسرة مؤتمرات مهّدت لهذه المطالبات المنافية للدين والأخلاق، منها:

- تكريس مفهوم المساواة بين الرجل والمرأة القائم على التماثلية التامة لا التكمالية، في دستور وميثاق الأمم المتحدة المبرم بتاريخ 26-6-1945، من مواد الأولى إلى الثامنة.

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عام 1948، الشامل لحقوق الإنسان المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. لكن دونما اعتبار في بعض البنود لخصوصيات المرأة.

- مؤتمر مكسيكو للمرأة والذي حمل شعار المساواة والتنمية والسلام عام 1975 وفيه السعي إلى تعديل ثم إبطال كافة الأنماط الاجتماعية والأنظمة التي تعتبر تمييزاً ضد المرأة بما فيه التعاليم الإسلامية.

- مؤتمر كوبنهاغن بالداغمرك لمتابعة المؤتمرات السابقة، التي تأخذ شكل التصديق ثم الانضمام ثم الإكراه واعتبار الخارج عنها خارج عن النظام الدولي وإن باسم الدين.

ولذلك ليس مستغرباً أن نجد أنفسنا في نهاية المطاف أمام صراع بين العولمة بشكلها الحالي وبين الخطاب الديني، ونقرر بأن ما يحمله هذا التيار الجارف ما هو إلا جزء وصورة من تدافع الحق والباطل، ومن الدراسات الحديثة من نحت هذا المنحى فقررت أن الصراع في شكله النهائي صراع عقيدة⁽¹⁾.

* تحديات الخطاب الدعوي على المستويين العالمي والمحلي:

الوفاد الإعلامي وقبلة المفاهيم:

إن تعريف المفاهيم أمر غاية في الأهمية في أي مجال علمي، والحقيقة أن أغلب مفاهيم العلوم السلوكية وبخاصة الاجتماعية تتداخل في معناها وتحتاج إلى جهد ذهني كبير للفصل بينها من حيث ما تشير إليه، وتعرض لهزات وحملات تشكيك في العصر الحديث.

وقد بات التأثير على القيم، وتغيير الشعوب من الداخل أكثر خطورة من التغيير بالتهديد العسكري؛ ذلك أن التهديد العسكري سرعان ما ينهار، عندما تنتفض عليه الشعوب الحرة،⁽²⁾ لكن الخطورة في التأثير الذي يبرز في أثواب التسلية والترفيه، حيث يسري السم مع العسل.

يقول د. توكر أسكيو مدير مكتب البيت الأبيض للاتصالات تعليقاً على مشروع قناة تلفازية لجذب الشباب العرب إلى أمريكا: "نحن نخوض حرباً في الأفكار بالقدر نفسه الذي نخوض فيه الحرب على الإرهاب، لذلك وجهة نظري ترى أن تخفيف الملابس عبر الإعلام هو أفضل وسيلة للاختراق".

ويشكل الإعلام بكافة صوره وأشكاله وبخاصة المعتمدة منها على الميديا (الصوت والصورة) أعتى الوسائل المعاصرة لخلخلة المفاهيم والتلاعب بها، والاعتداء على المبادئ والقيم والتحرر منها.. لذلك احتاج التعامل مع وسائل الإعلام فطنة وحذراً كبيرين، ولا نستثني.. من ذلك صحفاً ولا مجلات ولا إذاعات ولا

- مؤتمر نيروبي المعروف باسم استراتيجيات نيروبي للنهوض بالمرأة، وشارك فيه 157 دولة.

- مؤتمر بكين عام 1995، وفيه ظهر وبشكل صارخ الدعوة إلى حقوق مزعومة فيها مخالفة صريحة للشريعة الإسلامية بل والفطرة والقفر فوق سلطان الأخلاق باسم الحرية.

راجع: - فؤاد عبد الكريم آل عبد الكريم: العولمة الاجتماعية للمرأة والأسرة. مجلة البيان (إسلامية شهرية جامعة تصدر عن المنتدى الإسلامي)؛ عدد 170، ص 34-45.

- محمد قاسم حدبون: عولمة المرأة في المنتقيات الدولية؛ محاضرة بمسجد الغفران.

¹ نحو الدراسة الشهير للكاتب المعروف صمويل هنتغتون في كتابه "صدام الحضارات". وهو ما يقرأ في تغلطات الرئيس الأمريكي جورج بوش، وآخره تصريح البابا بنديكت السادس عشر.

² تاريخ الانتفاضة ضد الاستعمار وثورات التحرير تملأ الآفاق لتؤكد هذه الحقيقة، ويمكن ملاحظة الفرق بكل سهولة بين قبيلة المفاهيم وتأثيرها على الشعوب مع سلامة المعتدي، وقبلة القوة العسكرية من خلال مشهد الوضع في العراق حتى بات الجدل يزداد يوماً بعد يوم أن المزلق الأمريكي في الفيتنام بدأ يتكرر مع تدهور الوضع الأمني، على الأقل هو الأخير الذي انتزع من الرئيس الأمريكي في الخطاب الأسبوعي، وبلغ عدد القتلى في صفوف القوات الأمريكية في شهر أكتوبر الحالي أكثر من مائة وثلاثة قتلى!!

فضائيات، ولا حتى قنوات تلفزيونية تتحدث بالعربية وتتغنى ليل نهار بأمجاد الأمة وتقسم أنها تمثل ضمير هذه الأمة النابض وعقلها المفكر، لكنها تعمل من حيث وعى أم لم تع على تخدير الأمة وطمس هويتها.

ولنترك جانباً حملات التسفيه والتسطيح وتلميع النجوم الزائفة وتقديمها قدوات للأجيال، فذلك أمر يسهل كشفه، لكن الأخطر من ذلك تعمية الحقائق وتسميتها بغير اسمها أو بعكسها، ومع التكرار والاستمرار تغيب الحقيقة وتفسح مكانها لعكسها.

وسنمثل بنماذج تعكس مدى ما وصلت إليه حرب المفاهيم من قذارة لتدجين الأمة ومحو ذاكرتها، والتلاعب بمبادئها الدينية والأخلاقية، وقيمها الوطنية:

1- مفاهيم سياسية:

فمثلاً فلسطين المحتلة أصبحت بالكاد (الضفة الغربية وقطاع غزة) والعدو الإسرائيلي أصبح (دولة إسرائيل) والأراضي المحتلة غدت (أراضي متنازعة عليها) والمتمسكون بالإسلام غدوا (أصوليين) أو (إرهابيين).⁽¹⁾

وتسوّق القنوات الغربية هذه النظرة، لتعمي المواطن الأمريكي بالدرجة الأولى، ثم بقية شعوب العالم لينظر جميع الناس بمنظار حفنة من الناس.⁽²⁾

خذ مثلاً ما كان يحدث ولا يزال لمسلمي كوسوفا الذين يصفهم الإعلام الغربي وتابعوه من العرب "بالانفصاليين الألبان"، فهم انفصاليون يستحقون ما يفعله الغرب بهم، وهم ألبان لا دخل لنا بهم، وفوق هذا وذاك فهم "أقلية" لا يحق لهم الاستقلال رغم أنهم يشكلون 90٪ من سكان الإقليم، هكذا قال الإعلام الغربي وما علينا إلا أن نسلم.⁽³⁾

¹ دأب الإعلام الغربي على تسمية حركات مقاومة بأنها حركات إرهابية، فحركة حماس مثلاً منظمة إرهابية، وما تقوم به من دفاع عن الدين والوطن إجرام، وتوبعت حتى الدول التي توفر ملاذاً آمناً لزعمائها أو تمدها بالسلاح.. ومن غريب المفارقات في شؤون الديمقراطية أن تحاصر الحركة الفائزة بصناديق الانتخاب، وتعاقب كل دولة عربية أو إسلامية أو أجنبية قدمت مساعدة للحركة!!

² حرصت و م أ على تلميع صورتها أمام الرأي العام الأمريكي والعالمي في حملاتها العسكرية، فصوّرت الجندي الأمريكي بأنه المنتصر والإنساني، ولم تسمح لتسويق هذه النظرة.

³ أنظر: مجلة الأسرة العدد 63؛ جمادى الآخرة 1419 هـ.

2. مفاهيم أسرية وأخلاقية مغلوطة ترسخ لمبادئ العولمة:

يقدم الفن الجديد المسمى "الفيديو كليب" لأبنائنا وخاصة الشباب منهم كل يوم جديداً وعصرياً، ولكنّه في معظمه يُقدّم لهم على أطباق مذهبة ومزخرفة بنقوش من الزيف والتزوير، يقدم لهم الأفكار التافهة والمعاني الرخيصة، وما نقوشه ولا زخارفه إلا تعرّ وكشف للمفاتن، ومحاصرة جريئة لأخلاق الأسر وعاداتها ودينها ...

وقد أكد استبيان أجرته "مجلة ولدي" أن 98 % من الأبناء يتابعون "الفيديو كليب" بشغف حال تمكنهم من ذلك!

وفي الأسرة..

قُلبت الحقائق لدرجة يصعب على الشخص تصديق سرعة التحول لدى الناس .. إلى سنوات قريبة بدأ الغزو المكثف لإزالة حاجز التقاء الرجل مع المرأة لقاءً محرماً.. فزين الأمر بأنها علاقة شريفة وصداقة حميمة وحب صادق! وإذا وقع المحذور فهو نتيجة طبيعية للمشاعر الفياضة بين الطرفين.

ولم تسمع بكلمة الزنا والزاني والزانية في وسائل الإعلام البتة! بل زين الأمر حتى للمرأة البغي التي تعرض نفسها على الرجال الأجانب فسميت بائعة الهوى وصاحبة الحب المتدفق!⁽¹⁾

وقد أشار الدكتور أحمد المجذوب الخبير الاجتماعي في إحدى دراساته الميدانية إلى "أن الدراما العربية ووسائل الإعلام ساهمت في تلك الانحرافات، وأنّ نموذج الراقص أو الفنانة التي تهرب من بيت الأسرة تحت دعاوى الضغوط الأسرية، وإظهارها بعد ذلك بمظهر القدوة والبطولة قد أثر في وجدان العديد من الفتيات وصرن يمارسنه في الواقع.

كما أن الترويج لمفهوم معين للحب يقوم على التلاقي بين الفتى والفتاة بعيداً عن الأسرة والأطر الشرعية عبر الإلحاح الإعلامي بكل وسائله أثر بشكل كبير على المجتمع وعلى طبيعة العلاقات التي تحكم الرجل بالمرأة.

¹ ومن قبيل ذلك ما سميت به بائعات الهوى عندنا في الجزائر، ولقب التشريف الذي حُظِن به لما سمّين بالأمهات العازبات، ولنلن حقوقاً مادية معتبرة لم تنلها حتى الأم المثالية ربّة البيت، حاضنة الأسرة الجزائرية العفيفة الطاهرة!!

فالعديد من الأفلام تصور الراقصة بطلّة ، ولديها أخلاقيات ومثل عليا .. وفي بعض الأفلام تعيش المرأة المتزوجة مع حبيبها وتقدم هذه المرأة على أنها تستحق التعاطف معها !!"⁽¹⁾

وهذا تقرير لليونسكو يبرز ما جاء في تأثير التلفاز كنوع من أنواع وسائل الإعلام : "إن إدخال وسائل إعلام جديدة وبخاصة التلفزيون في المجتمعات التقليدية أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن"⁽²⁾

3. حقوق الإنسان والعولمة:

إن مفردات حقوق الإنسان التي نص عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام 1948 ، أو التي وردت في اتفاقيتي الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية الصادرتين سنة 1966م عن منظمة الأمم المتحدة ، هي حقوق قديمة في الإسلام اكتسبت مصطلحاً جديداً في المواثيق الدولية المعاصرة.

ولا شك أن "حقوق الإنسان" يمكن أن تقرب بين دول العالم ، إذا طبقت بموضوعية وتجرد. لكن حقوق الإنسان كما يطبقها دعاة العولمة ، لم تراع الخصوصية الدينية والثقافية والأعراف الصحيحة للمجتمعات ، بل أصبحت وسيلة للتحيز المقيت. فعلى سبيل المثال ، حقوق الإنسان -كما تطبق في العولمة- لا تساوي بين حقوق الإنسان الفلسطيني أو البوسني أو الألباني ، وحقوق الإنسان اليهودي أو الصربي ، كما تسمح في ظل العولمة بالتحيز ضد يهود الشرق في إسرائيل ، ولكنها لا تسمح بمقاومة المنحرفين عن نظام المجتمع في الكثير من بلدان العالم.

أو ما يقع حالياً من هتك لحقوق الإنسان وهتك الدستور في أعنى قوة تحمل شعار حقوق الإنسان ،⁽³⁾ في معتقلات غوانتانامو ، وأبو غريب... ، أو السكوت عن مجازر إسرائيل وهي التي أقامت الدنيا ولم تقعد لها لموت الحريري.

4. الإرهاب بين الإسلام والعولمة:

⁽¹⁾ د. أحمد المجدوب؛ مجلة الأسرة: العدد 122

⁽²⁾ أنظر: بشر بن فهد البشر: أساليب العلمانيين في تغريب المرأة المسلمة، ص

⁽³⁾ راجع الشريط الوثائقي على قناة الجزيرة "رغم أنف الدستور".

كانت أحداث ما يسمى بأيلول الأسود على حدّ تعبير أمريكا، أو غزوة "منهاتن" كما تسميها القاعدة أو بعض التنظيمات الإسلامية، نقطة تحوّل عميقة في مسار العلاقات الدوليّة، وطفا إلى السطح وزاد الاهتمام بمصطلح "الإرهاب"، واستأثر اهتمام المجتمعات والحكومات، وتنبّه العالم عن طريق منظماته السياسية والأمنية إلى مخاطر هذه الظاهرة التي شملت كثيراً من بلاد العالم.

وبسبب ظروف سياسية وجهود إعلامية موجّهة، حاولت العديد من الدوائر الحكوميّة والجهات الغربيّة أن تربط ما بين "الإرهاب" كظاهرة وما بين "الصحة الإسلامية" التي نمت في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ومن المحزن يدّعى بأن الإرهاب له أصل ديني، وأنه نتاج الإحياء الإسلامي، مع أن الظاهرة ليست من الإسلام ولا صلة لها بالدين الصحيح. ومن المشرق أيضاً أن تتحدث الدول الغربية عن إرهاب الإسلام وتتغافل عن الإرهاب المنظم، الذي تمارسه إسرائيل، بل ومن تدخل أمريكا في دول مثل العراق وأفغانستان باسم الحرية.⁽¹⁾

الوافد الإعلامي بالأرقام..

ازدحم الفضاء العربي في وقت قصير نسبياً بنحو 140 قناة فضائية، وتزايدت نسب مشاهدة الجمهور لهذه الفضائيات. وتفيد إحدى الدراسات العلمية الحديثة أن نسبة 69٪ من الجمهور العربي يشاهدون الفضائيات لمدة أربع ساعات يومياً، وأنّ 31٪ منهم يشاهدونها لمدة ثلاث ساعات يومياً، و 34.5٪ لمدة ساعتين و 15٪ لمدة ساعة واحدة يومياً على حين بلغت نسبة نمو مقتني أطباق البث 12٪ سنوياً، و 40٪ من هذه الفضائيات تتبع الحكومات العربية. والبقية تعتبر مستقلة ظاهرياً فقط، وعلاوة على ذلك فهي تعبر بصورة أو أخرى عن ثوابت النظام الذي ينتمي إليه أصحابها. وتمثل البرامج الإخبارية في هذه الفضائيات حوالي 5٪ فقط.⁽²⁾

وتبين من خلال الدراسات التي أجريت على خمسمائة فيلم طويل أن موضوع الحب والجريمة والجنس يشكل 72٪ منها يعني تقريباً ثلاثة أرباع الأفلام كلها للحب والجريمة والجنس، وتبين من دراسة أخرى حول الجريمة والعنف في مئة فيلم وجود 68٪ مشاهد جريمة أو محاولة قتل.

(1) انظر موقع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية www.ah-islam.com.

(2) الاستفتاءات التي يطرحها موقع الاستفتاءات العربية Arab polls.

ووجد في 13 فيلم فقط 73 مشهدا للجريمة. ولذلك قد تجد عصابات جريمة من الأحداث والصغار لأهم تأثروا من الأفلام التي يرونها.⁽¹⁾

وفيما يلي إحصائية لقنوات الأخبار عند المشاهد العربي :



1) انظر مجلة البيان العدد 189.

* البرامج الدينية في الفضائيات (نقد المضامين وتحليلها):

انطلاقاً مما يشهده عالمنا المعاصر منذ نهايات القرن الماضي من ثورة تكنولوجية في مجال الاتصالات والمعلومات، تأتي ظاهرة البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية والانتشار الواسع للقنوات التلفزيونية الفضائية أحد أهم القضايا التي تستحق المناقشة. وقد كان من الطبيعي أن تبادر المنطقة العربية إلى التعامل مع المستحدثات الاتصالية في مجال الفضاء حتى إنه لم يكد ينقضي عام 2001 إلا وقد أصبح لكل دولة من الدول العربية صغيرة كانت أم كبيرة قناة تلفزيونية فضائية واحدة على الأقل. وفي ضوء المنافسة الشديدة التي تشهدها المنطقة العربية بين هذه الفضائيات وتباين الجهات المالكة لها، تبرز ضرورة دراسة المضامين المختلفة التي تقدمها هذه الفضائيات بعامة، والمضامين الدينية بخاصة.

وستتناول بالتحليل والنقد هذه الظاهرة على مستويين، البرامج الدينية وبرامج الأطفال كقطبين للتأثير في المجتمع وبلوره منظومة مفاهيمه.

وليس خاف أن الفضائيات بما تمتلكه من مزايا كالتنوع والكثرة والبث المتواصل.. تجعلها أهم وسائل الاتصال الجماهيري في العصر الحاضر.. ومن أنسب الوسائل الإعلامية لنقل الرسالة الدينية والتربوية للكبار والصغار. ما المراد الإعلام الديني الإسلامي⁽¹⁾:

يتناول الخطاب الإعلامي الديني المتخصص، مختلف الموضوعات والقضايا في مجالات الحياة؛ فالدور المنوط بالبرامج الدينية في الفضائيات العربية دور خطير وهام في الوقت نفسه إذا ما أحسن استثماره.

والأصل أن المجتمع الإسلامي الذي يطبق الشريعة الإسلامية.. مجتمع شمولي من حيث العقيدة ومتكامل من حيث البناء والتنظيم، والإعلام فيه لابد أن يعكس شمول العقيدة وتكامل البناء الاجتماعي ومن ثم فإن كل شيء فيه إسلامي.

والإعلام في مثل هذه الحالة إسلامي في صدق أخباره، وإسلامي في الترويج والتسليّة، وإسلامي في إعلاناته، وشرح أخباره وتفسيرها، أما المجتمع الذي يطبق من الشريعة شيئاً ويترك أشياء فإن الإعلام فيه لا يسمى إعلاماً إسلامياً بحق.⁽²⁾

لذلك فإن أن أحد مفاهيم الإعلامي الإسلامي يتجاوز المعلومة الدينية التي تنتشر عبر وسائل الإعلام، إلى

⁽¹⁾ لا بدّ من تحديده بالدين الإسلامي، فتمّة إعلامي ديني تبشيري، يث على مدار الساعة، يعمل على نقض الإسلام ونشر التعاليم غير الإسلامية من مسيحية كاثوليكية، ويهودية... مثل قناة: الحياة تبث بالعربية واللهجة المصرية والقبائلية، وقناة: sat7;tv.market; holly god; sat2000 والأقراص المدججة المتداولة والكتيبات..

⁽²⁾ هذا ما نجده في كثير من القنوات التي تعرض جزء من البرامج الدينية ثم تخلط معه ما يناقض هذا المعروض!!!

الاندماج في روح الفلسفة الإسلامية، فالنظرية الإسلامية في الإعلام تُبسط على كلّ المادة التي تبثها الوسيلة الإعلامية سواء اتخذت شكل المادة الإخبارية أو التعليق السياسي أو البرنامج الثقافي أو العلمي أو الاجتماعي.. فكل هذه الأشكال تتكامل في الإعلام الإسلامي سواء في التزامها مادة وفكراً بمشروعية الإسلام العليا أو ارتباطها عضويًا بالنظرية الإسلامية.⁽¹⁾

- الإعلام الإسلامي وعلوّ الزبد:

يرى المفكر الإسلاميّ فهمي هويدي أنّ الأصل في مهمّة الإعلام الإسلامي هو الدفاع عن القيم السامية للمجتمع المسلم "وبناء على ذلك يفترض أن تكون هذه هي رسالة جميع قنواتنا الفضائية، ولا يصح أن تصنف الفضائيات إلى إسلامية وأخرى تبيح الفواحش وتصدر العرى والابتذال... هذا ما يجب أن يكون، ولكن بالنظر لما هو قائم من انتشار الفضائيات التي تتبنى الفساد رسالة لها⁽²⁾ فليس أماناً سوى تشجيع بث القنوات الإسلامية متخصصة وإن كانت قليلة ولا تزال في طور الحبو وليس الفصح الكامل".

ومع المعروض المناقض لمبادئ هذه الدول الإسلامية تأتي جملة من القنوات ذات التوجّه الدينيّ وهو كما يصفها الدكتور هويديّ "بمثابة ديكور يزين القنوات التي يضمها القمر الصناعي... وربما المشهد أقرب إلى جريدة صفراء تنشر المفاصد وبداخلها صفحة دينية من باب مخاطبة كلّ الأذواق!! وهذا أسلوب تسويقي لا يتناسب مع مكانة ودور الدعوة الإسلامية في حياتنا وما يجب أن نوليها من احترام".

- الإعلام الإسلاميّ تحت خطّ المواجهة:

وفي ظلّ هذه التجاذبات كان لا بدّ من محاربة الوسيلة بالوسيلة، ومجابهة التقنية المخرّبة بجنسها للتصحيح والبناء، ومن الضروري مواجهة ظاهرة انتشار الخلاعة وقنوات "الفيديو كليب" بتكثيف بثّ إسلاميّ مضاد وشيق.

وحسب قول الدكتور محمد معوض -أستاذ الإعلام بكلية الآداب، جامعة الزقازيق- "فإن الفضائيات الإسلامية منبر لصد الثقافات الوافدة.. والإعلام الآن يتجه نحو التخصص ويشجّع المنابر الإعلامية التي تهدف إلى ترسيخ المفاهيم الإسلامية في ظلّ العولمة وحروب الثقافات الوافدة" وبالتالي هي "خطوة صحيحة نحو تدعيم ارتباطنا بالهوية الإسلامية في مواجهة سيل التيارات الجارفة التي تحاول اقتلاع كلّ ما يمت

¹ مثل محاولات قناة المحمد، والنار والنجاح (smartway)، والقنوات التعليميّة، حيث يمثل الدين روح القناة، وليس جزءاً من خليط نجد جانباً منه يطلق عليه الإعلام

الدينيّ أو برامج القيم الروحية والدينية أو ما شابه ذلك من التسميات. تأخذ من الإسلام جانباً وترك جوانب أخرى

² من هذه القنوات التي أحصيناها على القمر الصناعي نيل سات (nilesat) نذكر: khalijia; rotana; art tarab; dandana; shababiyah; (nilesat) نذكر: khalijia; rotana; art tarab; dandana; shababiyah; strike; smile.tv; melody arabia; el emarah; zee arabiya; hawas tv; sahm tv; mazzika zoom; etv; mazzika; melody hits; nojoom3; sawalif; musicplus...

للإسلام بصلة من جذوره وتعمل على إصاق مختلف الاتهامات بالإسلام واصفة إياه بالجمود والعنف والإرهاب وعدم التماشي مع التطور الحضاري".

وإذا كان الدكتور هويدي يرى أن مثل قنوات الإعلام الديني لا تزال في طور الحبو وليس الفصح الكامل فإنّ الدكتور ماجي تأخذ عليها إغفالها لعناصر الإبهار والتشويق التليفزيونية والاكتفاء بالبرامج الحوارية والمواجهات قائلة: "أرى أنّ القنوات الإسلامية إذاً أكثر منها تليفزيونية، بمعنى أنها تعتمد على حاسة السمع وحدها دون الحاجة لحاسة الإبصار، ولكي تتخطى هذه السقطة يجب أن تستعين بالأفلام التسجيلية والمواد التعليمية الأخرى".

أمّا الدكتور فوزي عبد الغنى رئيس قسم الإعلام بكلية الآداب - جامعة جنوب الوادي - في تقييمه للبرامج الدينية فيرى أنّنا لا زلنا نعاني من مشكلة مواجهة الآخر وتغيير الصورة النمطية المشوهة التي يحتفظ بها عنا الغرب، وتنقصنا آليات مدروسة لمخاطبة العالم من حولنا "بالمستوى الذي يفهمون والقوة التي تجعلهم يتغيرون ويغيرون من مواقفهم العدائية تجاه الإسلام".

- البرامج الدينية خارج أوقات الذروة:

يرى د. عبد العزيز السيد الأستاذ بقسم الصحافة - جامعة الوادي الجديد - أنّ الإعلام الدينيّ غائب عن الفضائيات العربية التي تضع البرامج الدينية خارج أوقات الذروة حيث تقل كثافة المشاهدة، قائلاً: "من السخرية أن نعرض برنامجاً هادفاً يدعو إلى الهداية والاستقامة في الساعة الثالثة صباحاً مثلاً!! هذا التوقيت وغيره يعكس تهميش القائمين على الفضائيات العربية للبرامج الدينية واعتبارها من البرامج الثانوية والتي لا يهم أن يتابعها الجمهور ويستطرد قائلاً "يجب أن يكون للجمهور كلمة هنا بالتواصل مع القائمين على القنوات الفضائية وطلب بثّ هذه البرامج بكثافة وفي أوقات مناسبة وبشكل يساعد على نقاش واقعنا ومشاكلنا بعد أن تشبعنا ومللنا من برامج الترفيه والطرب".

* المزالق العقديّة والتربوية في برامج الأطفال:

لم يسلم من غبار العولة ودخانها حتى البراءة، فقد وُجّهت ضربات عديدة إلى مقاتل المجتمع المسلم بقصد تغريبه عن دينه، وتجهيله بحقيقته، ومسحه إلى مجتمع مفتوح على كلّ الثقافات، دون الاحتفاظ بشخصيته المتميزة، بحيث يكون بدون هويّة يعتنقها، أو يدافع عنها. ولم تكن كلّ تلك الضربات عسكرية، بل إنّ بعضها نوع غريب وخبيث، بطيء التغيير، ولكنه يصل إلى العظم، والهدف منه عالم الأطفال.. تلك الفئة العمرية التي تتعامل مع ما حولها ببراءة، مقتصرة على التلقي واكتناز المعلومات، لتحويلها إلى سلوك عملي، يحدّد كثيراً من منحنيات حياتهم بعد البلوغ.

إن أغلب الأطفال في عالمنا اليوم يتلقون ثقافتهم وبخاصة قبل المدرسة من التلفاز، وغالبها من أفلام الرسوم المتحركة، أو ما يُسمّى بأفلام الكارتون "cartoon"، يليها برامج الأطفال الأخرى، ثمّ المسلسلات والأفلام.

وقد غدا للأفلام الكارتونية اليوم قنوات خاصة تبث طوال اليوم، في قالب فني جذاب متطور،⁽¹⁾ وأنطقوها بلغتنا العربيّة، فالتصق بها أطفال المسلمين التصاقاً مخيفاً، أثر على تشكيل عقيدتهم وعقولهم وبناء شخصياتهم، إلى جانب التأثير السلبيّ على صحتهم العضويّة والنفسية.

ولنا أن نسأل: لماذا صار بث قنوات الأطفال 24/24 ساعة؟ ألأنّ الأطفال لا يملكون الحس النقديّ الذي يوجههم لاختيار المفيد؟ بل هم يشاهدون كلّ ما يبث، ولا بد هنا من التنبيه لقضية مهمة وهي: إنّهُ كلما صغر عمر المتلقّي كان التأثير أكبر في بناء تشكيل قنوات وآراء المشاهد، لذا فنحن مسؤولون أمام الله عز وجل عن كلّ ما تتلقاه عقول أبنائنا.

ومن المهم جداً أن يتابع الوالدان ما يشاهده أطفالهم، فهم الغرس الذي تُختار تربّته بعناية، وكذلك ينبغي أن يُسقى هذا الغرس بما هو كفيل بصلاحه بمشيئة الله.

لقد تحوّلت الأسرة الصغيرة إلى مجموعة أفراد أو ما يعرف بـ (الفرد الرقمي)، وهذا يفترض تحول الإنسان من الصياغات العاطفية والإنسانية إلى شخص آلي مولع بـ (الأزرار) والأرقام، ناهيك عن الانفصال العاطفي.... فلقد دلت دراسات أمريكية منذ أواخر السبعينات "أن التلفزيون يجمع العائلة فيزيائياً ويفرقها عاطفياً"

إن التفكك الأسري الذي نعيشه هو ضريبة الحياة الاستهلاكية التي تم استيرادها من الغرب.. دون محاولة إيجاد توازن بين مخرجات التكنولوجيا وحاجيات المجتمع العربي.. وهذا التفكك نتج عنه مفاهيم جديدة كغياب احترام الوالدين، واحترام الحياء، ونقص الحياء من الأبناء والبنات.. الخ⁽²⁾

الرسوم المتحركة خطر غير مدرك:

يقول أحد الباحثين: "إنّ أفلام الكارتون قنابل تتفجر كلّ يوم في شاشاتنا الصغيرة دون وعي منا أو متابعة، فهي لا تزال بريئة في أعيننا، مجرد تسلية، وأشدّ الأمراض فتكاً ما يغفل عنه صاحبه، وأشدّ الأعداء توغلاً

⁽¹⁾ مثل قناة: MBC3؛ spacetoon؛ (باللغة العربيّة والإنجليزية).

⁽²⁾ انظر: رقية الهويريني؛ مخاطر التلفاز، مجلة الأسرة العدد 113.

وإضراراً، ذاك الذي يبدو لك بعيني صديق حبيب، وهو يحفر الخندق، ويطعن الظهر؛ ومن عادتنا ألا نتنبه لأمر حتى يبلغ ذروته.

إن هذه الرسوم -كما يقول المختصون- تشغل قلوب فلذات أكبادنا، وتصوغ خيالهم وعقولهم وتفكيرهم، وتشوّه عقائدهم وثقافتهم بعيداً عن تقييمنا الدقيق، بل ربما يكون إدمانهم على مشاهدتها تحت رعاية منا، ومشاركة في معظم الأحيان. وننسى أنها من أبرز العوامل التي تؤدي إلى انحراف الطفل، وتبلّد ذكائه، وتجميع خلقه؛ فأفلام الكارتون سريعة التأثير؛ لما لها من متعة ولذة. والطفل سريع التأثير؛ لأنه يعيش مرحلة التشكل واكتساب المعرفة مما حوله، وما تعرضه الفضائيات منها لا يعتمد على حقائق ثابتة، وإنما على خرافات وأساطير ومشاهد غرائزية، وتشكيك في المعتقدات لا يجوز الاعتماد عليها -بحال من الأحوال- في تنشئة أطفالنا، وتربيتهم. والعجيب أن يتغافل الآباء والأمهات عن هذه الحقيقة، ويديرون لها ظهورهم كأنهم لا يعلمون ذلك كله؛ بحجة تحقيق الهدوء في المنزل، بتخدير الطفل أمام الشاشة، حتى قال أحدهم: "فور صدور أية حركة تنبئ عن استمرار طفلي في اللعب والصراخ، أدير التلفاز على إحدى القنوات، لا إرادياً أجد طفلي ممدداً على الأرض وبصره إلى التلفاز، في حالة أشبه ما تكون بالتنويم المغناطيسي".

أصبح التلفزيون منافساً رئيسياً للوالدين بل سبق الآباء في بعض البيوت، في تشكيل سلوك الأبناء وتلقينهم المعارف والقيم، الصالح منها والطالح.⁽¹⁾

تقول صالحة العماري -مدير وحدة التربية الإسلامية بالإدارة العامة لتعليم البنات بالمنطقة الشرقية بالسعودية: "إن الأفلام الكرتونية المقدمة للأطفال لا تخلو من المخالفات الدينية الخطيرة التي تمس عقيدة الطفل وتؤدي إلى التباس المفاهيم وخطئها والتشويش على الصالح منها" ومن أمثلة المخالفات نذكر على سبيل الذكر لا الحصر:

* الجانب العقدي:

اختلت الموازين عند أطفالنا بسبب ما يُعرض عليهم على الشاشة، فيرى الطفل رجلاً يطير في الهواء، وينسف الجبال نسفاً، ويشق القمر بيده، ليس هذا فحسب بل هو يطلق أشعة من عينيه تفعل المعجزات.⁽²⁾ وتدور أحداث قصص الأطفال حول المغامرات والعنف وشخصيات خرافية وهمية، مثل شخصيات الحيوانات، ورجال الفضاء.. وترى الطفل قد غرق في خيالات بعيدة عن الواقع مع قصة 'سوبرمان' و'بات مان' و'ميكي ماوس' و'غاسبير'.. كلّها قصص غريبة مصوّرة ترجمها من ترجمها بما فيها من مزالق عقدية

⁽¹⁾ أنظر جريدة "الوطن" الأحد 20 محرم 1424هـ.

⁽²⁾ وفي ذلك تجميع لظاهرة المعجزة من جهة، أو تقديس وتأييد للذي يشاهده الطفل، والخطورة أن ينفي الطفل هذه معجزات عن الرسل لأنه لم يرههم بل سمع بهم، ويحلل الاحترام والاقتداء بـ "السوبر مان، والبيوكيمون..".

وتربوية، ولعل الجميع يتفق على أنها لا تتضمن معانٍ تربوية رفيعة موجهة، ولا تهدف إلى غرس الأخلاق والقيم الصحيحة، وأعظم من هذا كله أنها تغفل وجود الله بالكلية، وذلك عندما يتحكم أبطال الفيلم في الكون من دون إله وفي مقدرات الكون.⁽¹⁾

* الجانب النفسي:

لوسائل الإعلام دورٌ بارز في زرع بذور الخوف والقلق في نفوس أطفالنا بما يعرف من أفلام مرعبة تخيف الكبير قبل الصغير كأفلام غرندايزر، وغزو الفضاء، ورجال الفضاء والقصص التي تدور أحداثها حول الجن والشياطين والخيال.. بما تصوّر من أشكال ووحوش من وحي الخيال، وكلّها توقع الفزع والخوف في نفوسهم إلى جانب أنها لا تحمل قيماً أو فائدة علمية. وينعكس أثر ذلك على أمن الطفل وثقته بنفسه مما يشاهده من مناظر مفزعة تجعله يعيش في خوف وقلق وأحلام مزعجة.

* الجانب الاجتماعي:

يقضي الأطفال حول التلفاز ساعات طويلة تؤثر في حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم بالأسرة، وبهذا يقلّ اكتساب الطفل للمعارف والخبرات من الأهل والأصدقاء، كما يصرفه أيضاً عن اللعب ومتعته مع أقرانه.

* الجانب التربوي:

قد يجلس الطفل أمام التلفاز أوقاتاً طويلة دون مراقبة ودون توجيه، وهذا له أثره السلبي على التحصيل الدراسي ومتابعة الدروس. ولا يخفى الأثر السيئ لأفلام العنف والجريمة على شخصية الطفل وتهيئته للانحراف مع وجود ما نعرفه من أن بعض الأفلام تصوّر الكذب والخداع والمراوغة على أنها خفة ومهارة وشطارة، ومعها ينزع الحياء نزعاً من قلوب أطفالنا والآداب التربوية السامية في حياتنا. ويمكن أن نلخص الآثار السلبية لوسائل الإعلام فيما يلي:

1. نقل أخلاق ونمط حياة البيئات الأخرى إلى مجتمعنا، ونقل قيم جديدة وتقاليده غريبة تؤدي إلى التصادم بين المعروف ومبادئ الدين الحنيف، وخلخلة نسق القيم في عقول الأطفال من خلال المفاهيم الأجنبية التي شاهدها الطفل المسلم، ولها أثرها السلبي على الأطفال لمغايرتها قيم البيئة المسلمة؛ كما أن إبراز نجوم الفن والغناء والرياضة والتركيز عليهم يكون على حساب العلماء والقداوات الصالحة.⁽²⁾

¹ تصوّر الأفلام الكرتونية أبطال الفضاء بأنهم حامو الأرض والسماء، وتلخص الصراع بين الشر والخير في صورة النور والظلام، وتمثّل إمكانية البعث والعودة إلى الحياة بعد الخراب والتدمير في معركة خاسرة، كما تذبذب لدى الطفل مفهوم الخلق، فالعقري في المخر بإمكانه صنع مخلوق ثم جعله يتحرّك، وإمكانه إعادة تصويره كيفما شاء، وتزويده بقدرات عجيبة هي من وحي العقري وقدرته الخارقة...!!

² ممّا لا شكّ فيه أنه من جوانب الاستهلاك الواسع في دول العالم الإسلامي المتخلف الجانب الإعلامي والترفيهي، فبرامج الأطفال كلّها ممّا ينتج في استوديوهات الغرب، ومن صنّاع الأفلام الكرتونية نجد اليابان ذات الديانات الوضعية المترسبة (الكونفوشيوسية؛ الشنتوية؛ الطاوية؛ البوذية) والولايات المتحدة المسيحية والعلمانية، وبرامج والت ديزني، وطوم جيري، وميكي ماوس.. كلّها من الصنع الأمريكي.

2. تصوير العلاقة بين المرأة والرجل على خلاف ما نربي عليه أبناءنا.⁽¹⁾
3. بناء ثقافة متناقضة بين مبادئ الدين والأخلاق التي يترتب عليها الطفل في البيت والمدرسة أو المسجد وما يشاهده في الإعلام، وحيرة الطفل في المثالي والأصح.
4. مشاهدة العنف الشائع في أفلام الأطفال قد يثير العنف في سلوك بعض الأطفال، وتكرار المشاهد التي تؤدي إلى تبلد الإحساس بالخطر وإلى قبول العنف كوسيلة لمواجهة بعض مواقف الصراعات، وممارسة السلوك العنيف، ويؤدي ذلك إلى اكتساب الأطفال سلوكيات عدوانية مخيفة، إذ أنّ تكرار أعمال العنف الجسمانية والأدوار التي تتصل بالجريمة، والأفعال ضد القانون يؤدي إلى انحراف الأطفال.
5. ومن سلبيات هذه الوسائل السهر وعدم النوم مبكراً والجلوس طويلاً أمامها دون الشعور بالوقت وأهميته، مما له أثره على التحصيل الدراسي وأداء الواجبات المدرسية، بالإضافة على الأضرار الجسيمة والعقلية كالحمول والكسل، والتأثير على النظر والأعصاب، والسمنة أو البدانة التي تصيب بعض الأطفال لكثرة الأكل أمام هذه الوسائل مع قلة الحركة واللعب والرياضة.
6. يحرم الطفل من ممارسة اللعب الذي يعتبر ضرورياً للنمو الجسمي والنفسي فضلاً عن حرمانه من المطالعة والحوار مع والديه. يقول الدكتور أحمد عبد الملك: "لقد تبدل مفهوم الإشراف الأسري على الأبناء ولم تعد الأسرة الحاضن الوحيد والمناسب للنشء فلقد وفرت لنا مخرجات الثورة التكنولوجية أنماطاً من وسائل الترفيه واللهو مما جعل دور الأسرة هامشياً.. ولا أدل على ذلك أن ما يقضيه الشاب أو الشابة مع التلفزيون أو الإنترنت أكثر مما يقضيه من وقت مع والديه أو حتى في المدرسة"⁽²⁾
7. إفساد اللغة العربية لغة القرآن وتدعيم العجمة وإشاعة اللحن.
8. إثارة الفزع والشعور بالخوف عند الأطفال عبر شخصية البطل والمواقف التي تتهدده بالخطر، والغرق في الظلمة والعواصف والأشباح خاصة إذا كان الطفل صغيراً ويتخيل كل الأمور على أنها حقائق!! وفي ظل هذا التطور والتقدم المذهل لوسائل الإعلام وجدنا أنفسنا أمام هجمة شرسة مفروضة من الإعلام وغزواً يحتاج عقول أطفالنا.⁽³⁾

¹ من الرسومات التي تصوّر هذه العلاقة الرجل البحار المعروف بـ "بوبي".

² أنظر مجلة الشقائق في عددها الـ 35؛ مجلة ولدي العدد 22

³ ومن السلبيات التي توصل إليها أحد الباحثين منشورة في جريدة "الرياض" بتاريخ 01 شعبان 1424 العدد 12882

ما البديل..؟

مع هذا الوضع الذي يتيح لأطفالنا كل شيء، ارتفعت أصوات بعض المصلحين والمربين تحذّر منه وتدعو إلى التخلص منه، وفريق آخر يدعو إلى ترويضه واستخدامه في أهداف التعليم والتربية، لكن الفريقين يتفقان على الآثار السلبية التي يتركها التلفزيون على سلوك الأطفال، وإن اختلفت رؤيتهم في سبل وقف هذه الآثار، هل بالتخلص من التلفزيون أم بترشيد "وفلترة" مشاهدته؟.

لقد أصبح أسلوب المنع غير مناسب ولا معقول، بل لا بد من التعامل بحذر مع المادة الإعلامية، وإيجاد البديل المناسب، ولا بد من صناعة إعلامية تصل لعقل الطفل ولا تحمل تلك السلبيات الآنفة، والمسئولية مشتركة بين البيت والمدرسة والمسجد وأجهزة الإعلام والثقافة ومن المجتمع بشكل عام، وأن ينتبه الجميع إلى خطورة تأثير وسائل الإعلام على الأطفال إذا لم توجه بشكل صحيح وتحت مراقبة وتوجيه من الوسائط التربوية، كي تكون وسائل بناء وتربية، وليست وسائل هدم وفقدان هوية للأطفال.

الطريق نحو البديل..

وفي رأي الدكتور محمد معوض -أستاذ الإعلام بكلية الآداب، جامعة الزقازيق- في حديث له عن آلية تطوير القنوات الإسلامية أنه لا بدّ أن "تخرج هذه القنوات من حيز الجمود والرتابة التي تُعتبر سمة الكثير من البرامج الدينية، إلى ضرورة تنويع المادة الإعلامية المقدمة.. فالبرامج الحوارية ليست القالب الوحيد الذي يفترض أن تعتمد عليه، ولا بد من تقديم الأعمال الدرامية المعاصرة والمسابقات وغير ذلك للخروج من حيز الجمود.. ويستطرد قائلاً "وأودُّ هنا أن أشير إلى تجربة غير مسبوقة قامت بها إحدى المؤسسات الإعلامية السعودية بإنتاج سلسلة أفلام كرتون كمادة مشوقة تهدف إلى الدعوة للإسلام ونشر قيمه السامية لدى الأجيال الناشئة، ومع الأسف لم تحظ السلسلة بالرواج المتوقع ولم تجد الاهتمام المطلوب من القنوات التي يفترض أن تسوق لمثل هذه المواد وتدعم إنتاجها".

البرامج الدينية والصورة النمطية:

"الصورة النمطية" هي نظرة يسوّقها الغير إلى طرف ما، يقدّمها في قالب أو زاوية نظر يسعى إلى أن يحملها الغير بغض النظر عن صدقها، كحرص الإعلام الغربي على الربط القسري بين الإرهاب والإسلام.

فالصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين في الغرب رُصدت لها كتبٌ ودراسات وبرامجٌ وتصريحات.. تهدف إلى الاغتيال المعنوي للشخصية المسلمة بتقديمها في صورة سلبية، حيث إن النظرة إلى الإسلام في الغرب فيها الكثير من الحذر والخوف. وتأكّدت هذه الصورة خاصة بعد أحداث سبتمبر 2001.⁽¹⁾

العولمة وإثارة غبار المذهبية..

يسعى رواد العولمة ومنظروها إلى النفخ في رماد المذهبية عندما يتعلق الأمر بمصالحهم الاقتصادية والسياسية.. وتحت تخدير هذه الإثارة تجترب بعض التيارات المذهبية بإيعازٍ من رواد العولمة -من حيث وعوا أو لم يعوا- خطاباً دينياً نابعاً من التعليم المتطرف الموجه من قبل بعض المدارس الدينية، ويقنات من سوء الأوضاع الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية وصراع الهويات؛ وينسى أو يتناسى الانشغال بالقضايا والتحديات الكبرى التي تواجه المسلمين كونهم مستهدفين جميعاً.. أسبابٌ تفضي إلى تفشي أعمال العنف لوجود المخزون البشري والفكري المستعد لخوض عمليات المواجهة الدموية دفاعاً عن نهج معين؛ وما ذاك إلا مرضٌ نفسي واجتماعي ينتج من سوء التفكير وعقمه وضيق أفق صاحبه، والذي يدفعه لكره الغير ويفضي للعدوانية التي تقوم على الجهل والاستجابة لنداء النصرة الجاهلي "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" ضد كل الجماعة الأخرى.

وما يجري الآن من تفاقم الصراعات المذهبية والعرقية والتعصب القومي، يعدّ من أشد الأزمات التي تهدّد بالعصف حالياً بالعالم العربي-الإسلامي، وهي بالتالي نتاج التعصب الأعمى الذي لا يقود إلا للدمار والهلاك.

والغريب أنّ هذه الخطابات تلجأ في كثير من الأحيان إلى ذلك الموروث الطائفي المثقل بالأحزان والشجون لتطرحه في بعض مواقع المواجهة. ولا تكتفي بتكفير المسلم الآخر مذهبياً، بل تحل قتله وتستحلّ دمه كما هو في فتوى بعض المتزمتين الذين لم يطلعوا على الرأي الإسلامي في المذهب الأخرى.⁽²⁾

⁽¹⁾ من النتائج الفكرية والسينمائية الذي يبيّن لهذه الصورة نمّثل: كتاب «التهديد الإسلامي: الوهم والحقيقة» لجون لاسيو سيتوا عام 1993؛ «آيات شيطانية» لسلمان رشدي وكتاب «بين المسلمين» لنا يول والذي أساء فيه إلى الإسلام والمسلمين وكذلك فيلم «أمير مصر» والذي أنتجته هوليوود؛ كذلك فيلم «المومياء» الأمريكي الذي تعمد قميش الشخصيات العربية وتصويرهم في صورة سطحية غارقة في الأساطير والجهل. وكذلك فيلم «سيف الإسلام» الذي كانت تعرضه القناة الرابعة لهيئة التليفزيون البريطاني عام 1987 حيث تحدث البرنامج عن أن هناك محنة سوف يواجهها العالم بسبب المد الإسلامي وأن الخطر الجديد الذي يهدد البشرية هو الإسلام.

⁽²⁾ والأولى أن تنقّي كل مادة فكرية نحو المقررات المدرسية، والخطب الجمعية، والكتب والإصدارات، ومواقع الأنترنت التي تغرق في مهارات الجدال العقيم والتكفير واستباحة الدم.. الأولى أن تنقّي من الفتاوى المتعصبة والاحتكام إلى روايب الماضي. والأصل أن يكون ذلك مشروع خطة عمل بين جميع الدول الإسلامية، وليس كما نرى في بعض الخطابات الدينية التي تكفر الغير، وعلى عين ومسمع الدولة.

وفن نعش أواخر القرن العشرين وكأنّ المتغيّرات الكبرى في العالم لم تؤثر فينا حتى في محاولة إعادة قراءة ذلك التاريخ الطائفي الممتد لعدة قرون مضت والمشحون بترسبات الماضي.⁽¹⁾

وإذا أمسك زمام المذهبيّة من صنّاع العولمة فعندها سنجد أنّ الخلاف بين المذاهب الفقهية السبعة التي ينتمي إليها المسلمون وهي: (الحنفية والشافعية والشيعة الإمامية والمالكية والإباضية والزيدية والحنبلية) يتجاوز مرحلة الخلاف الطبيعي الذي يعكس ثراء الشريعة ومرونتها، إلى ظاهرة الاختلاف لأغراض سياسية ولحساب مصالح قوى خارجية أحياناً.⁽²⁾

ويقول ناجي حسن عبد الرزاق "إنّ استمرار هذا الخطاب سيزيد من الانقسامات الداخلية ويعرض الوطن للتجزئة والتفتت وتحويله إلى قصاصات مذهبيّة ومناطقية وحتى قبلية. أبهذه الطريقة يُبنى الإنسان داخل الوطن؟ هل بالتمييز الطائفي والمذهبي والأيديولوجي يتماسك الوطن أمام التحديات والأخطار؟ وهكذا يتقلص التطرف العقائدي وينمو التسامح والتآخي؟ ألم يحن الوقت لكي تسود الحكمة وتبدأ المسيرة بإزاحة الشوائب المتخلفة من مناهج التعليم ومن المؤسسات الدينية المتطرفة ومن الحياة الثقافية الاجتماعية؟ ألم يحن الوقت لتكن مناهجنا التعليمية وإعلامنا ممثلاً لكل المذاهب الإسلامية ولكل الآراء دون تمييز؟"⁽³⁾

وأخيراً ليس للمسلمين إلّا أن يدركوا ويعملوا بضرورة التعامل بمبدأ التعددية المذهبيّة والطائفيّة، والتعايش مع هذه الحقيقة الواقعية والتي يستحيل إلغاؤها، يدعونا إلى التمسك بصحة التوجهات القاضية بضرورة تفهم الواقع المذهبي والتعامل بكل احترام وتقدير للدور الذي لعبه كل مذهب في أغناء وتطوير الفكر الإسلامي وما خلقته تلك المذاهب من ثروة فقهية هائلة.⁽⁴⁾

ويتلخّص ذلك فيما يلي:

1. تقديم قراءة واعية ودقيقة عن الآخر المتعدد، بهدف ضمان صيغة وبنية خطاب ملائمة لوسطه ومناخه.

2. محاولة تجسير الشروحات والرواسب الموروثة عن الفهم الماضوي لمضامين وبنية الخطاب الديني

⁽¹⁾ ناقش الدكتور محمد الريسوني قضية الاتصال والانفصال بين الإسلام والتاريخ، ومما قاله "إننا عندما نتلقى الإسلام اليوم نجد أنّ جزءاً كبيراً منه مخلوط بالتاريخ، صحيح أنّ التاريخ يساعد على الفهم، ولكن الثوابت الدينية التي تصلح لهذا العصر وذاك العصر وللحداثة وما بعد الحداثة يجب أن تكون واضحة، فالخطاب الديني يخلط كثيراً اليوم بين الشرع والتاريخ".

⁽²⁾ بعيداً عن الجدل السياسي وتحليلات السياسة وصنّاع القرار، لنا أن نتساءل: ما موقف الدول الإسلاميّة وشعوبها من عدوان الكيان الصهيوني اليهودي، على الشعب اللبناني المسلم. والحال يظهر أنّ لغة المذهبيّة لم تغب عن صناعة المواقف المؤيدة أو المعارضة؛ فمنة من وضع الخطر الشيعي في الاعتبار قبل الخطر اليهودي!!!

⁽³⁾ انظر: ناجي حسن عبد الرزاق؛ مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة. صفحة شؤون سعودية؛ الخطاب الديني السلفي في السعودية إلى أين؟

⁽⁴⁾ انظر: جواد غاتم: التقريب بين المذاهب؛ موقع مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية www.alwihdah.com

للآخر، وذلك بخلق حال من التناغم والتلاقي والتسامح مع الآخر، وتحسيسه بالثقة المطلقة بالمراد التواصل مع.

3. وضع الآخر في مجال التواصل، وإحداث القطيعة مع قناعات الإلغاء الساكنة في موروثه الثقافي تاريخياً.

عولمة الدعوة وتعويم الفتاوى..

لم يقتصر آثار العولمة على العبث بالحدود وإزالة الحوافز الجمركية، فعلى صعيد الدعوة والفتوى ظهر أنّ حدود المذهبية قد سقطت، وأصول الاجتهاد وفق ضوابط المذهب قد انمحت، واختلط على الناس ميدان الفتوى، وتجراً على الإفتاء، وعلى أخذ الفتوى ونقلها أبناء هذا العصر، كان من آثار ذلك نوع من التخبّط في مرجعية أخذ الفتوى، وأسهم ذلك في إحداث فسيفساء مذهب مرجعتها التلقي غير الواعي لفتاوى على الهواء.

ولعلّ المشكلة تبرز أكثر عندما يتعلّق الأمر بالحديث عن قضايا عقدية تمثل أصول بلورة المذاهب تطرح وفق تصوّر معيّن، نابع من قناعات الواعظ أو المرشد.

إنّ وجود قنوات فضائية إسلامية أمثال اقرأ والمجد وغيرها من الفضائيات، قد مثّل مصدراً بديلاً للمعرفة الإسلامية وللفتوى الدينية، خصوصاً لدى الفتيات والنساء، في ظل غياب الدعاة والوعاظ الأكفاء عن المساجد، وفي تقهقر مستو كثير من الدعاة، حلّت رياح العولمة على الجانب وبقي السلطان للأقوى، والأكثر تنظيماً أو إمكانات مادية وبشرية.⁽¹⁾

* واقع الخطاب الدعوي في وادي مزاب:

عرفت الخريطة الفكرية لوادي مزاب تنوعاً وغازرة منذ إعمار الوادي، فلم يكن الوادي خصباً بواديه، بل عرف حركة علمية تقوى وتحفّت حسب الظروف المحيطة.

⁽¹⁾ يقول كاتب شيعي سعودي: "سمحت السلطة السعودية للتراث الوهابي بالتوسّع والامتداد عن طريق الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي. وما يُنشر من كتب ونشرات عقائدية تعرض بالتجريح والتشويه لقناعات المواطنين الشيعة (وغيرهم) في العربية السعودية وخارجها مدعومة وتُباع وتوزّع بسهولة وعلى نطاق واسع حتى في خارج البلاد. فبينما يُسمح حالياً ببيع هذه الكتب في المكتبات السعودية بدون سلطة رقابية رسمية، يجري منع بيع الكتب العقائدية التي تعكس وجهة نظر الشيعة أو المعتزلة أو الصوفية في نفس هذه المكتبات. فالشيعة والإباضية والمعتزلة وغيرهم فرق ومذاهب ضالة أو كافرة أو متزندقة أو مشرقة، أو في أحسن الأحوال مسلمة ولكنها منحرفة عن العقيدة الصحيحة. وبالتالي فإن السنة والجماعة هم من تطبق عليهم مواصفات الفرقة الناجية بحسب المعايير الدينية الوهابية".

انظر: ناجي حسن عبد الرزاق؛ مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة

لقد عرف الوادي مدرسة المعتزلة، ثم الإباضية فالمالكية، وتشعبت المدرستان وتعايشتا لقرون طويلة، وعرفت المدرسة الإباضية كغيرها من المدارس الفكرية، حركة علمية دؤوبة أخذت شكل التجديد والانبعاث على يد علماء أفذاذ فطاحل عرفهم الوادي.

واليوم.. في الوادي حركة علمية متكاملة، جمعت بين النص والعقل، وقرنت التربية الإيمانية بالإصلاح الاجتماعي؛ فاستوعب الوادي مدّ حركات علمية عالمية، فقوي جانب الاهتمام بالحديث وبعث العناية بالسنة، وتعويض النقص المسجل في موروث المذهب من السنة، ووجد فكر الدعوة والتبليغ مكانته في الخريطة الفكرية.. وليس غريب أن تحدث عملية الانصهار ضمن الزخم الفكري ردّات وهزّات، لكنها لم تنل من أصول المذهب، فلعلّ الأولى أكملت نقصاً ظاهراً، ولعلّ الثانية أحييت جهداً ومبدأً كان يعرفه أهل الحق والاستقامة في نشر الدعوة، من البصرة إلى عمان وحضرموت، ومن تاهرت ووارجلان إلى غرب إفريقيا والسودان..

لكن أمام تسارع الأحداث، وتنامي المدّ الفكري لبعض الاتجاهات التي لا تتوافق وأصول المذهب، ولا تتناغم وواقع المنطقة كان حتماً على مجلس عمي سعيد الحكمة في التعامل مع الوافد الفكري الجديد، فليس كلّ ما يرد يصلح، وليس كلّ بريق يلمع نافعا، بل لا بدّ من الاجتهاد ضوابط علمية مضبوطة لاحتواء الوافد، وليس لنا إلّا المواجهة بالفكر والحجة، ولا سبيل للمجابهة بالرفض، وترك الأمر للواقع يفعل فعله.

* آفاق التجديد في الخطاب الدعوي:

مع المدّ الإعلامي ظهرت موجة جديدة من الدعاة؛ دعاة يتحدثون بلغة العصر، ويتناولون مواضيع تهم الشباب. ولم يكن مألوفاً نسبياً قبل خمسة عشر عاماً رؤية هذا الحشد الكبير من الشباب الذين نراهم اليوم في المساجد، كما خرجت الدعوة حتى إلى الفنادق والصالات العامة. يعود الفضل، أو اللوم، لهذا التوجه الديني بين شباب الأمة إلى جيل جديد من الدعاة الذين يبدو أنهم قادرون على إيصال رسالتهم أكثر من سابقينهم.

ويعرف هؤلاء بتقديم خطابٍ متسامحٍ مريح. حتى "الصورة النمطية" لصورة الشيخ ذي المهابة والعمامة دخلها التطور. ويحاول هؤلاء دوماً دمج التعاليم التقليدية بسلسلة من القوالب الفكرية القائمة ولعلّ جاذبيتهم تظهر أكثر في تناولهم لقضايا الشباب، وحديثهم عن مواضيع متعلقة بالحياة اليومية التي أفزرتها التبعة تحت سلطان العولة، مثل المواعيد الغرامية والعطل الصيفية، والمدنية الحديثة عموماً.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ "صفوت حجازي" أحد الدعاة الجدد الذي اشتهروا في الساحة الدعوية "على الداعية أن يتكلم لغة العصر" وشدد على أهمية اختيار المواضيع، فضلاً عن أنه يجب على أن يكون للداعية

عمل ثابت خشية أن تتحول الدعوة إلى نشاط لكسب المال. حجازي نفسه مهندس ناجح، وعمرو خالد ديلوم في الاقتصاد، وطارق السويدان متخصص في علم الإدارة.

وبالمقابل قامت حملة مضادة لمثل هؤلاء ويرون فيها تنازل عن مبادئ وركون إلى سلطان الواقع وتمييع للإسلام بدعاوى عصريّة، وأطلق ألقاباً على هذا النوع من النشاط الدعوي نحو "دعوة بالريجيم" أو "إسلام بالهواء المكيف"⁽¹⁾

وسواء أعجبنا ذلك أم لا فإن الدعوة الجديدة هي تجلّ واضح للواقع الديني، ربما الأكثر وضوحاً، طالما أن هؤلاء الدعاة يرفضون إصدار الفتاوى أو الحث على التطرف فلا خوف منهم.

ولاحتواء موجة مدّ العولة وتأثيرها على الشباب لا بدّ من الخلوّص إلى آليات دعوية تستجيب لتحديات العصر، من غير أن تتنازل عن كليات الدين وأصوله.

هندسة الخطاب الإسلامي المعاصر ومكوناته:

مكونات الخطاب الديني = نص كريم (قرآن، سنة) + زمان دعوي + جهد (نبوي، دعاة) + كيان اجتماعي + تقنيات توصيل دعوية وواقعية للنص + فهم حقيقي للنص + تطبيق تقريبي لمراد النص

ولكي لا يتجرأ على الدعوة كلّ من هبّ ودبّ، وحتى يستطيع الخطاب الديني الإسلامي المعاصر تخطي عتبات القراءة التقليدية والماضوية لمضامينه، يجب أن يتحصن بالأسس والقواعد المنهجية التالية:

1. الفهم العميق، والهضم الدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الديني الإسلامي في بُعديه المقدس والاجتهادي.

2. الفهم العميق والدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الديني الإسلامي في بُعديه المحلي والعالمي، وحدودهما الفاصلة بينهما، بُنية وتوجّهاً وتأثيراً.

3. الفهم العميق والدقيق لمكونات الخطاب الديني الإسلامي في إطار سياقه التاريخي التجريبي.

4. فقه المعطيات الواقعية المحلية والإقليمية، والعالمية منها بشكل أخصّ وأدق، والتمييز بين ما يجب أن يوجه للمدعوين المحليين، وبين ما يجب أن يوجه للآخر المتعدد عالمياً.

5. عدم إهمال التراكمات الإنسانية الحضارية الأفقية والعمودية، في جانبها النصري: [العلمي، المعرفي، الفلسفي، الثقافي، الفكري، والتنظيري]، والتطبيقي: [التكنولوجي، الاتصالي،

⁽¹⁾ انظر: غادة عبد القادر، ترجمة منال عبد الحفيظ؛ صحيفة "أهرام"، 11/1/2006.

الفضائي^[١٠].

من تقنيات الوسائل الدعوية الحديثة:

1. القنوات الإذاعية والفضائية المتخصصة.
2. صفحات الويب.
3. الرسائل القصيرة: sms; mms
4. الفلاشات الدعوية، والمطويات.
5. الأقراص والأشرطة.
6. مواقع على الشبكة العنكبوتية.
7. الاتصال المباشر: الندوات، الدورات، المخيمات..

شروط الداعية المعاصر:

1. الرصيد العلمي الواجب للداعية، إذ الرائد لا يكذب أهله.
2. التكوّن المتخصص في الدعوة.
3. إجادة استعمال وسائل الاتصال الحديثة.
4. متابعة القنوات الفضائية، والبرامج والحوارات (استحداث مركز للتجميع، قاعدة معلومات).
5. إجادة اللغات.

والحمد لله ربّ العالمين

